القديم والجديد

في ضواحي مدينة يراغ ببوهيميا قصر قديم بني منذ نحو خمس مئة سنة وهو يخصّ عائلة تُشتن من اقدم عائلات بوهيميا واعرقها نسباً . كان لهذه العائلة ثروة طائلة ثم اخذت تفتقر على مرّ الايام حتى لم يبقَ لها سوى هذا القصر . وكان يسكنهُ الكونت تشتن الوارث الوحيد لهذه العائلة ويعيش مما يتقاضاهُ من السياح الذين يقصدون القصر لمشاهدة ما فيهِ من الآثار القديمة . فيبلغ متوسط دخلهِ نحو جنيه يومياً ينفقهُ على نفسهِ وحاشيتهِ المؤلفة من رجل وزوجتهِ وابنتهِ . فالرجل بواب وخادم وبستاني وامرأتهُ دليلة للسياح وطاهية تشتري الطعام وتطبخهُ وابنتهُ جارية وغسالة وتساعد امها على مقابلة السياح

ومنذ سنتين وقف تاجر اميركي اسمهُ ادورد تشتر بباب القصر يسأل عن الكونت فقيل لهُ انهُ في غرفتهِ فدخل عليهِ فاستقبلهُ الكونت على الرحب والسعة واكثر من ملاطفتهِ والتجمّل اليهِ . فجلس تشتر عند نافذة تطلّ على دار القصر فلم يسمع سوى صوت خرير الماء وسجع الورقاء . وكان الزائر ضخم الجسم تدلّ ملامحهُ على حزم وعزم والمزور فتى ممشوق القدّ تدلّ هيئتهُ على رائع ادب وسامي تربية ونحو ذلك مما يتحلى بهِ ابناء الامراء

ولما جلس الزائر قدم الكونت اليهِ سيجارة فتناولها شاكرًا وقال "جئتك يا حضرة الكونت لاكلمك في امر ذي بال"

فانحنى الكونت احتراماً . فقال الزائر" قدمت مدينتكم بغتة هذا الصباح فأخبرتني ابنتي انكم خاطبتموها في امر الزواج"

فانحنى الكونت ثانية فقال الزائر" انني لا اعلم عاداتكم في هذا الشأن اما في الولايات المتحدة فان معظم البنات يقررن امر زواجهن من تلقاء انفسهن ولكن بيني وبين ابنتي رابطة تواد ربما كانت شاذة . فان مشيئتها ومشيئتي واحدة"

فقالت الكونت "اذاً هل أعال نفسي بتزوج ابنتك"

فأشار الاميركي بيدهِ وقال" ان ابنتي تميل ان تتزوج شاباً من شعبها ومع ذلك كلهِ فانها تفضلكم على سائر من تعرفت بهِ من الشبان وستقترن بكم على شرط —"

فقال الكونت بلهفة "وما هو هذا الشرط"

قال الاميركي" على شرط ان تبيع هذا القصر بما حولهُ وتبتني منزلاً في الجبال وتقضي ستة اشهر كل سنة في الولايات المتحدة"

فشخص الكونت ببصره الى الفضاء ولم يُحر جواباً واعاد الاميركي قولهُ السابق واخيراً اجاب الكونت بصوت خافت قائلاً " لا اقدر"

فقال الاميركي "لعل في صدرك حزازة من بلادنا هلمَّ الينا نشفها لك. وقد لا ترى فيها ماترى في هذه الغرفة من الآثار القديمة ولكن عندنا اموراً اخرى تقرُّ الناظر وتسرُّ الخاطر. وترى كثيرين من اهالي الشارع الخامس[1] يرحبون بك. فان عندنا فئة من الكبراء والاعيان يساوون ملوك اوربا فيما سوى قدم العهد وهم يسرُّون بالتعرُّف بك. وعليهِ فلم اكن انتظر ان الشرط الذي اشترطناهُ عليك يسوءك. فتروَّ في المسألة ولا تعجل وردَّ الجواب عليَّ غداً"

فقال الكونت" ان الغد لا يغير شيئاً في عزمي. ولم يكن يخطر ببالي ان هناك شيئاً يمنعني من الاقتران بابنتك ولكن هذا الامر لا استطيعهُ. ولا ريب عندي انني اسرُّ بلادكم وقومكم ولكن اسرتي سكنت هذا القصر خمس مئة سنة. وما دام في الارض رجل من سلالة تنشن فانهُ يسكن هذا المكان"

فاجابهُ الاميركي "ما هذا الاَّ من نتائج الغرض والهوى. وقد وقع لي مثل ذلك فيما مضى ولكن الامور كلها صائرة الى التبدل والتغير فما صح امس قد لا يصح اليوم وما يصح اليوم قد لا يصح غداً. وهذه الانفة التي تحكُّ في صدرك الآن كانت تعود عليك بالشرف والكرامة في سالف الازمان اما الآن فلا"

قال الكونت "ولِمَ ذلك"

فاجاب الاميركي " لانها قديمة ولا محل للتقاليد القديمة في هذه الايام. واذا شئت ان اصدقك المقال قلت لك ان هذه الخلة عقبة في سبيل التقدم والنجاح"

ولما فرغ من الكلام قال الكونت لهُ "هلمَّ اتبعني فأريك ما يمنعني من ترك قصري" قال هذا ومشى في طريقهِ والاميركي يتبعهُ حتى انتهيا الى غرفة مقفلة ففتحها ودخلا واذا بها غرفة مظلمة وفي وسطها مائدة عليها ثلاث سفن صغيرة مصنوعة من العاج بتوتيتها وشراعها ومدافعها وسائر ما فيها احداها تامة صحيحة والاثنتان الاخريان سواريهما مكسورة ونوتيتهما مطروحون على الظهر قتلى. وهناك ورقة كتب عليها " ان السفينة "براها" التي يقودها الكونت لويس تنشن قهرت سفينتين عثمانيتين في ٧ اكتوبر سنة ١٥٧١ " فقال الكونت " وكان ذلك ختام معركة لبنتو. والكونت تنشن المذكور احد اجدادي وقد ولد في هذه الغرفة "ثم مشى قليلاً

(١) اسم الشارع الذي يقطنهُ اكابر نيويورك واغنى اغنيائها

وقال مشيراً بيده الى صندوق له واجهة زجاج "وهذا هو الكونت لويس نشن"

فأجفل الاميركي عند ما رأى جثة الكونت محنطة وعليها الملابس التي كان يلبسها لما وقع قتيلاً على ظهر السفينة . وكان قد مضى عليها ما يزيد على ٣٠٠ سنة ولم تتغير البتة

فوقفا امام الجثة دقيقتين ثم انحنى الكونت دلالة الاحترام والاكرام ومشى وتبعهُ الاميركي على الاثر . ولما خرجا من الغرفة قال الكونت "عسى ان تكون قد ادركت السبب الذي يمنعني من ترك القصر فضلاً عن بيعهِ"

فاجاب الاميركي "كلاَّ لم ادركهُ"

فنظر الكونت اليهِ نظرة المدهوش وقال "انهُ وديعة اودعتها والكونت لويس نشن أثر حيٌّ يذكرني بها"

قال الاميركي "اذاً فادفنهُ"

فاجاب الكونت "ظننت انك ادركت مغزى مقالي . فان السلف الصالح يكرّم ويبجل حتى في بلادكم الجديدة"

قال الاميركي "انت مخطئ يا سيدي اننا نهتمُّ بالخلف اكثر من اهتمامنا بالسلف . ولعل السبب في ذلك ان قليلين منَّا يعرفون الشيء الكثير عن اسلافهم وليس في الولايات المتحدة كثيرون اذا شرعوا في تعداد اسلافهم يتجاوزون اجدادهم . ومن العبث وضياع الوقت ان تقضي عمرك مفكراً في المعركة التي فاز فيها احد اسلافك . تعال الى نيويورك وان كنت تميل الى رؤية المعارك واماكنها وسائر ما يتعلق بها أريناك المكان الذي كسرنا الانكليز فيهِ في لكسنتون منذ نحو مئتي سنة فان في ذلك ما يثير دم القلوب اكثر مما يثيرهُ منظر السفن التي عندك . وجدير بقصرك ان يصوّر وتنظم القصائد فيهِ ولكن ابنتي لا تستطيع ان تسكنهُ هذا ما اقولهُ لك اليوم وكفى فكر فيهِ وسأزورك غداً لاعلم جوابك"

فابتسم الكونت ابتسامة الاسف وقال "ان يوم الغد لا يغير شيئاً في عزمي"

فقال الاميركي "تمهَّل ولا تتسرع" ولم يكد يفرغ من هذه العبارة حتى رأى الباب قد فتح ودخل احد الكرادلة . فهبَّ الكونت لاستقبالهِ قائلاً "اهلاً وسهلاً بنيافتكم" فمدَّ الكردينال اليهِ يدهُ فانحنى الكونت وقبلها ثم قال "أتسمحون لي ان اقدم لكم رجلاً من اهالي نيويورك" والتفت الى المستر تشستر فقال "لي الشرف ان اقدّمكم الى نيافة الكردينال رئيس اساقفة براغ" فانحنى الاميركي وقال الكردينال بالانكليزية "انك قدمت من بلاد بعيدة فعسى ان تكون قد سررت برؤية مدينتنا القديمة" فقال الاميركي "نعم سررت بها

وكأنها من تصاوير الشعر والخيال . وقد حضرت الصلاة في كنيستكم هذا الصباح فلما رأيتكم وانتم يخفق بكم خوق اشواقكم وشممت رائحة البخور وسمعت نغمات الارغن والقيثار وترانيم المرنمين اثر ذلك فيَّ تأثيراً لا يعبّر عنهُ بالكلام ولم يبرح من ذهني الى الآن . ولو كانت عقيدتي عقيدتكم لكنت شديد التمسك بها "

فتبسّم الكردينال وقال " افلتك تسمح لي ان انفرد بالكونت خمس دقائق فاني اريد ان اكلمهُ في امر ذي بال "

فقال الاميركي " كنت اتحفز للذهاب عند قدوم نيافتكم . فسأراك غداً يا سعادة الكونت " ثم ودع وخرج

وبقي الكردينال يكلم الكونت مدة طويلة فلما خرج من عنده كانت ملامحهُ تدلُّ على الاسف والغيظ وملامح الكونت على الرضى والابهة . ولما قدّم لهُ العشاء لم يكد يمسهُ بل كان يدخن السيجارة اثر الاخرى . وقال في نفسهِ " ان نيافة الكردينال يكلفني ما لا أطيق وانا لست ممن يُكرَه على ما لا يريد . فاذا لم اتزوّج مود فلا اتزوج الكونتة ماريا مهما تكن عليهِ من الثروة . لا لا اتزوج الاَّ مود . ولكن قصري كيف تسألينني أن أضحيهُ يا مود . ألا ترين فيهِ غير الحجر ألا تعلمين انهُ جزءٌ لا ينفصل عني ومع ذلك فانتِ تحبينني حبًّا ليس مثل الحبّ الذي يدبُّ في صدورنا نحن البوهيميين . والآن فاما الحبُّ واما الواجب . من يشير عليَّ بما افعل سأُشاور جدّي الكبير لعلهُ يهدي قومهُ الى سنن الرشاد "

وكان الليل قد انتصف وخدم الكونت قد ناموا فاخذ مصباحهُ من غرفتهِ وسار بهِ الى غرفة جدهِ المحنط ولما دخلها وضعهُ بجانب سفن العاج وفتح الكوى والنوافذ لتهوية الغرفة ثم وقف بجانب جثة جدهِ خاشعاً ينتظر الجواب ولكن لا مجيب . وحانت منهُ التفاتة في جوانب الغرفة فرأى خزانة ففتحها وتناول منها رزمة اوراق قديمة للعائلة وبينها ورقة من الامبراطور ينعم بها على العائلة بلقب شرف وكتب من الامبراطورة واوراق سياسية تدل على عظمة شأن عائلة تشتن في زمانها . فألقى الاوراق من يديهِ غاضباً وادار وجههُ الى جدهِ قائلاً

" لقد اخنى علينا الزمان وقضى على سلالتنا . وانت اسنى كواكبها واما آخرها واحقر رجل فيها . ولكن غيرتي عليها اعظم من غيرتي على نفسي . فانا اترك حبيبتي يا لويس واترك معها كل امل بالسرور اكراماً لك . فقد صدق نيافتهُ . ان عليَّ واجبات نحو بلادي وعائلتي وكنيستي لابدَّ من قضائها . . . . . "

ثم توقف عن الكلام بغتة اذ سمع صوتاً غريباً خلفهُ فالتفت واذا بالنار تشتعل وقد اكلت

الاوراق والمائدة وما عليها من سنن الفج . فهمَّ لاصطناعه ولكنهُ لم يستطع لان الريح كانت تهب شديدة من الوراقد فتزيدها ضراماً

وبينما هو على تلك الحال طرق بالهُ خاطر فابتهج له وقال لقد لطفت ياجدادُ اخيراً وظل واقفاً ينظر النار تلتهم ما حولها حتى احاطت بالصندوق الذي فيهِ جثة جدهِ فودعهُ وخرج

وهكذا احترق قسم من القصر ولم يرمم بعد ذلك بل اشترتهُ بلدية براغ منهُ فبنى قصراً في الجبال . وفي خريف تلك السنة تزوج مود ابنة ادورد تشستر فاستقبلهُ كبار نيويورك وعظماؤها بصدور رحبة واصبح منزلهُ في الشارع الخامس خط رحال كل عظيم وكبير من سكان الولايات المتحدة

وهو يقضي قسماً من السنة في النمسا حيث يحضر جلسات مجلس الامة لانهُ عضو فيهِ وقسماً في بوهيميا وقسماً في الولايات المتحدة

وقد جرى كثيرون من امراء اوربا مجراهُ فتزوجوا من بنات الاميركيين الاغنياء وذووهم يحسبون انهم ارتكبوا امراً ادًّا لانهم امتزجوا بحديثي النعمة

يتقرَّب زيد من ابواب الملوك ويفلح في السياسة والمداراة فينعمون عليهِ بالقاب الشرف ويزوجونهُ احدى بناتهم او اخواتهم فيصير من العظماء وينظر اليهِ الناس معجبين بهِ من غير شكوى ولا اعتراض وينظر هو الى العظماء كانهُ ولد بينهم والثوب الذي يلبسونهُ مفصَّل لهُ . ويذهب عمرو الى ميدان القتال فيفوز ويرتقي في درجات الجندية ويمنح اعلى رتب الشرف ويحسب بين عظماء الامة ولا منفرد ولا معترض ولا هو يرى نفسهُ دانى ما صار اليهِ بل لا يستعظم ان يجعل ابن اكبر امير في البلاد بين ياورانهِ

واما التاجر الذي يسهر الليالي في الجد والكدح ويخترق الآفاق ويتجشم المشاق حتى يجمع ثروةً وافرةً ويصير قادراً على ان يبني القصور الفاخرة ويتنعم فيها مثل اعظم الملوك فلا ينظر اليهِ امراء الامة كأنهُ واحد منهم ولا هو يعدُّ نفسهُ في عدادهم

هذا ما كانت عليهِ الحال في كل مكان وزمان لكنهُ اخذ يتغير الآن بعد ان ضعفت دولة السيف وعزَّت دولة الدينار اي بعد ان صار متاع الدنيا كلهُ عرضاً يشترى بالمال . وقد ثبت الحرب بين القديم والحديث وتدل الدلائل على ان الفوز لارباب الاموال وسينتظم الملوك والامراء في سلك التجار واصحاب الاعمال